

## إنسانيتك: هل هي بدماعك أم بعقلك ؟

دكتور / حسين صبري

مدرّب ومحاضر في هندسة التفكير والبحث العلمي

(تم نشرها بصحيفة الاتحاد – أبوظبي)

دماغك .. أعظم ما خلق الله تعالى لك ، فيه معلوماتك وأفكارك وملاحظاتك وتجاربك ، انه مستودع أسرارك ، انه المقر الآمن لوعيك وفعلك وإرادتك ، انه أدواتك في إدراك الأشياء على حقيقتها ، به تدرك الحسن من القبح والخير من الشر والحق من الباطل ، دماغك بهذا يدل على عقلك ، ولهذا أوردت المعاجم اللغوية ألفاظا عدة للدلالة على العقل من مثل : التفكير ، التدبر ، اللب ، النهى ، الرشد ، الرأي ، العلم ، التفقه ، الحكمة والنظر ، كل هذه الدلالات وردت في سياقات مختلفة في آيات القرآن الكريم .

قلبك .... أيضا من أعظم ما خلق الله تعالى لك ، فيه أحاسيسك وعواطفك وميولك واتجاهاتك ، انه مستودع محبتك أو كراهيتك ، مكنن انفعالاتك ، انه أدواتك في الميل إلى الشيء أو النفور منه ، انه العضو العضلي الأجوف الذي يستقبل الدم من الأوردة ثم يدفعه إلى الشرايين ، قاعدته إلى أعلى ويقع في تجويفك الصدري ، وقد ارتبط بالنوازع الإنسانية تجاه الأشخاص والأشياء .

أحيانا يعبر عن العقل بالقلب .. لهذا اختلف العلماء في دلالة التعقل .. هل تتم بالدماغ أم بالقلب ؟ .. والمقصود بالتعقل هو ما يؤديه العقل من أنشطة ذهنية وما يقوم به من مهارات دنيا وعليا للتفكير و أثرت أسئلة كثيرة .. هل العقل شيء مجرد عن المادة العضوية المتمثلة في الخلايا العصبية للدماغ التي تحتل تجويف الجمجمة العظمي في الرأس ، و عن المادة العضوية المتمثلة في أنسجة القلب وأورده وشرايينه ؟

هل هذا العقل صورة من صور تلك المادة ؟ هل هو شيء غير الروح ؟ هل هو عرض من أعراضها هل هو جوهر مستقل بذاته بعيدا عن الدماغ ؟ هل نشاط العقل يتغلغل كالروح ويسري في كافة أجهزة الجسم وليس مقصورا على الدماغ وحده ؟

الجدال قائم .. والبراهين مختلفة حد التناقض ... والنظريات تتبارى وتتصارع .

واعتماد عامة الناس بل والمتخصصون منهم على أن يربطوا بشكل لاشعوري بين العقل ومهارات التفكير من جهة ، وبين القلب والعواطف والانفعالات من جهة ثانية ، رغم أن العلم يقول أن القسم الأيمن من الدماغ يختص بالإبداع والذوق والإلهام وهي أمور تبدو قلبية أكثر منها عقلية ، و للعلوم وللعلماء آراء أخرى :

### فالتب :

يرى أن الدماغ هو مركز الوعي والحس والحركة والذاكرة والكلام والإرادة والاختيار .

### والأدباء ومعهم كثير من علماء النفس :

يقولون أن القلب هو الشاهد على الدماغ ، فيه الدليل على الصدق أو الكذب .. فيه مقر الإيمان أو الكفر ، فيه الرقيب الذي يوقظك عندما تندفع أو تنغمس في ممارسة الخطأ والمعصية ، ودليل ذلك ما يظهره جهاز كشف الكذب من تغيرات عضوية كيميائية وعصبية معينة عندما يكذب الإنسان وهو تحت الاختبار مع هذا الجهاز .

### وهناك من يعارض ذلك ويقول :

بأن بعض الأشخاص تمكنوا فعليا من الخضوع لاختبار هذا الجهاز ولأكثر من مرة وأغرقوا في الكذب دون أن يكتشف الجهاز أنهم كاذبون ... فهل ما مكن الإنسان من تلك السيطرة على انفعالاته وتحكمه إلى هذه الدرجة ... العقل .. أم القلب .. أم شيء آخر في النفس لا ندري كنهه ولا حقيقته .

### فريق من الأطباء :

يؤكد أن مركز الفكر والإرادة بعيد عن القلب ، إذ إن بعد إجراء عملية زراعة القلب لدى بعض الأشخاص قد أظهرت النتائج بعد فترة من نجاح تلك الزراعة أن أفكار وميول الشخص وإرادته هي هي لم تتغير ، بعيدا عن الأثر العضوي الحاصل بعد إجراء العملية الجراحية .

### فريق ثان :

يكاد يجزم أن أي إصابة مادية مؤثرة في الدماغ تحدث بفعل حوادث السيارات أو السقوط من مكان مرتفع والارتطام بالأرض أو نتيجة الإصابة بطلق ناري أو اصطدام الرأس بجسم صلب يمكن أن يؤدي إلى نوع من فقدان الذاكرة السمعية أو البصرية أو الكلامية أو الكلية ، وفي هذا دليل على أن المعلومات

والأفكار التي يخترنها العقل لها نوع من الوجود المادي في خلايا الدماغ ، إذا أصيب المركز الخاص بوظيفة ما تعطلت آلية وعمل تلك الوظيفة .

### فريق ثالث :

يرى أن فقدان الذاكرة نفسه يمكن أن يحدث دون أن يصاب الفرد بأي إصابة مادية في الرأس ، وإنما نتيجة لصدمة عصبية أو نفسية شديدة ومفاجئة ، وهذا يدل على أن معلوماتنا وأفكارنا التي نخترنها في ذواتنا ليس لها وجودا ماديا في خلايا الدماغ ، فضلا عن أن بعض الأشخاص الذين أصيبوا بإصابات مادية في الرأس ، بعضهم تعطلت بعض وظائفهم الدماغية ، فيما لم يصب البعض الآخر بأي عطل وظيفي رغم أن الإصابة تكاد تكون واحدة في مكانها وأثرها .

### كيف تتكون أفكارنا وخبراتنا وميولنا العقلية ؟

- نحن نحس أولا ، فعند الولادة نسمع ثم نرى ونشم ونتذوق ونلمس ، تقوم حواسنا الخمس بنقل المحسوسات المادية إلى الدماغ عن طريق أعصاب متخصصة وظيفتها تجميع المعلومات عن حالة الجسم والمحيط الذي يعيش فيه الإنسان .
- ثم تتحول هذه المحسوسات المادية إلى صور ذهنية تبقى في مخزون الذاكرة ، منها نعرف الأشياء ونفهمها ونكون منها أفكارا عقلية متنوعة .
- وفي مرحلة ثالثة نستطيع أن نجرد هذه المعلومات الذهنية من دلالاتها المباشرة ونستخلص منها قيما ومبادئ وميولنا وأحكامنا وقراراتنا المختلفة .
- لم يستطع العلم إلى الآن فهم وتفسير الآلية التي بها تتحول الاحساسات المادية إلى صور ذهنية ، وكيف تتحول الصور الذهنية إلى مبادئ وقيم ومثل عليا وأحكام وقرارات.

### لقد عبر القرآن عن هذه المراحل الثلاث تعبيراً بليغاً في وصف الكافرين :

- بأنهم " لا يشعرون " أي لا تتم لهم عملية تمييز المحسوسات بشكل صحيح
- وبأنهم " لا يعلمون " أي لا يستطيعون تكوين معرفة ذهنية معتبرة ودقيقة عن الأشياء والمواقف والأحداث .

▪ وبأنهم " لا يعقلون " أي لا يقدرّون على إصدار الأحكام والقرارات المناسبة ، كما ليس في مقدورهم صناعة القيم والمفاهيم والمبادئ السوية .

وفي هذا يقول الشيخ الشعراوي " أن كل كلمة في القرآن هي عاشقة لموضوعها " .

يقول الصادق الأمين : " ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " ، و يخبرنا القرآن الكريم " إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور " ، وفي هذا بيان أن القلب منبع الفساد أو الصلاح ، كما ثبت في الأثر حادثة شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم ونزع قلبه الشريف وتطهيره ، ثم إعادته مكانه وهو في عمر الثالثة ، كما ورد في السنة الطاهرة أن " قوام المرء عقله ، ولا دين لمن لا عقل له " ، من ذلك نستدل أن الدين والعلم واليقين والإيمان في العقل ، يقول المولى عز وجل في سورة القلم " كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة " ، فالناصية شعر مقدم الرأس في أعلى نقطة من جبهة الإنسان في الفص الجبهي من المخ ، والتي تشير إلى مركز الإرادة والاختيار ، وقد قيلت هذه الآيات في أبي جهل عندما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ، دلالة على أن الكافر سوف يجر في جهنم ووجهه إلى الأرض في قاع الحريق ، إنها مركز عزة نفسه وكبريائه وتعالیه ، لأنها مركز إرادته واختياره لفعل الشرك والمعصية دون الطاعة والإيمان .

المؤكد فسيولوجيا وبيولوجيا إن كل جهاز في الجسم وله توجه محدد ووظيفة معلومة ، والجهاز العصبي يهيمن على كافة أجهزة الجسم ومنها الدماغ والقلب ، وذلك يتم في كل حركة للإنسان مهما بدت تافهة كحركة أحد الأصابع في اليد ، أو كانت عظيمة كإبداع الأفكار والأدبيات والنظريات العلمية الكبرى ، فالجهاز العصبي هو ما يوصلك إلى الطمأنينة والسكينة أو إلى الضيق والتوتر .

فهل وظائف الدماغ والقلب منفصلة عن بعضها فلا يعمل كل منها إلا في نسق وظيفي مستقل ؟ ، وهل نستطيع القول بالترابط الدقيق بينهما في الأداء والفعل ؟ وهل الجهاز العصبي هو من يتولى هذه المهمة ؟ أم أن هناك سرا ما لازال مجهولا لنا فيه إجابات كل تلك الأسئلة ؟ .

القردة الشمبانزي أرقى أنواع المملكة الحيوانية يملك دماغا وجهازا عصبيا ، يتشابه تشريحيًا إلى حد كبير مع ما يوجد عند الإنسان ، لكنه غير خاضع للتكليف ، ولا يحاسب ، وغير مسئول عما يفعل ، لأن المولى عز وجل يخبرنا أنه "" علم آدم الأسماء كلها " ، إن هذا العلم الذي أعطاه الله تعالى قد أعطاه للإنسان ، فاستحق التكليف ، واستحق الجزاء ، يتم هذا العلم وتتحقق هذه المسؤولية وهذا

التكليف بالدماغ والعقل والقلب والنفس والروح معا ، لأن ما لا يمكن التشكيك فيه وسط زحام الآراء والاختلافات بين الأطباء والفلاسفة وعلماء التشريح وحتى الباحثين في علوم الدين أن الإنسان يكون إنسانا بكل ما فيه جميعا ، وإنما هذه الأجهزة أدوات ووسائل تعمل معا وتتأثر معا ، وتسئل معا ... وثواب معا أو تعاقب معا ، وإنما يكون التصنيف والفصل بين أجهزة الجسم لغرض علمي أو لحاجة تربوية أو لفائدة تشريحية ، والعبرة أن الإنسانية لا تتحقق إلا بوحدة الإنسان لا بأجزائه المتباينة هنا أو هناك من المادة الحية الموزعة في جسده .